الدراسات والبحوث

حول طبيعة الاستشراق
أرنست رينان والاستشراق الفرنسي

د. محمد يحيى خراط*

لم يثر كتابٌ ضجةً لدى المثقفين العربِ وغير العرب كتلك الضجة التي أثارها كتابُ «الاستشراق»(١) للكاتب العربي الفلسطيني إدوار سعيد(٢). فلقد كتب عددٌ من الكتاب والمفكرين العرب عن الاستشراق والمستشرقين ومذاهبهم ومناهجهم ولكنَّ تلكَ الدراساتِ لم تكن أكثرَ من ملامسةٍ سطحيةٍ لموضوعٍ في غاية الأهميةِ، وفي بعض الأحيانِ لم تكن تلكَ الدراساتُ أكثرَ من عرضٍ لسيرة حياة المستشرقين وبعضِ أعمالهم.

* باحث في التراث العربي (وزير سوري سابق).

(*) العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ولكن المهم في كتاب « الاستشراق » هو صدورُهُ عن كاتب عربي فلسطيني عاش في الولايات المتحدة الأميركية ودَرَّس ودرس في جامعاتها، فتعرف عن كثب على طريقة تفكير الدارسينَ هناك وصانعي القرار، وكيف ينظرون إلى العرب والمسلمين وشعوبِ الشرق بشكلٍ عام. والكاتب لم يكتب كتابَهُ إلا بعد أن توفرت لديه القناعاتُ والمراجعُ لما يكتب، فكان لصدقيةِ كتابهِ تلكَ الضجةُ وذلك الاهتمام.

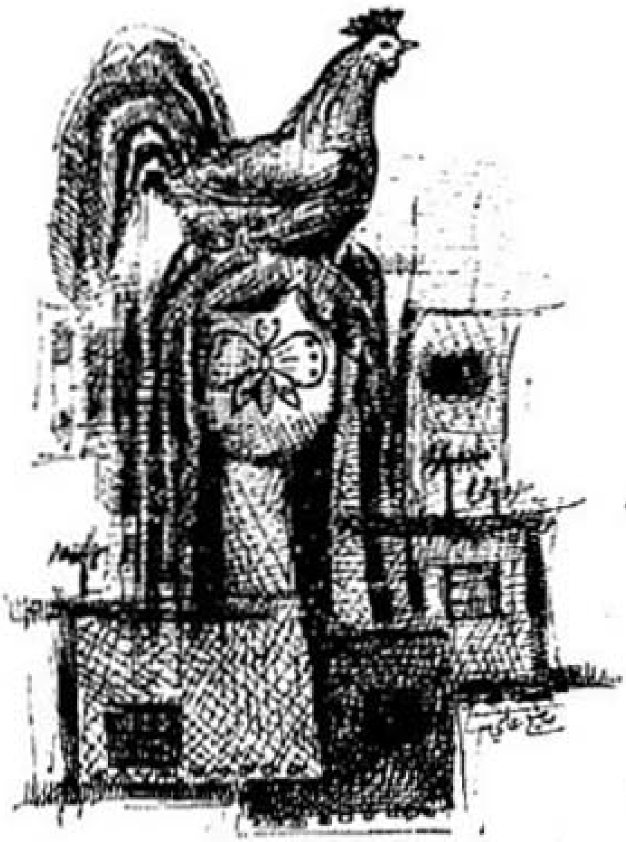
ويُعتَبرُ كتابُ « الاستشراق » أول كتابٍ تصدى لنظريات المستشرقين عن الشرق شرحاً وتحليلاً، ولادعاءاتِ الغربِ بأنهُ أقدرُ من الشرقيين على فهم الشرقِ.. وبالتالي على حل مشاكِلهم.. ولكنْ على طريقته (١).

لقد احتكر المستشرقونَ الغربيونَ دراسةَ الشرق وتدريسَهُ حتى لأبناء الشرق أنفسِهم، ولربما كان المثقفونَ من أبناء الشرق هم أحدَ الأهداف الهامة وذلك عن طريق حرفِهم عن التفكير السليم ليس في حاضرٍ ومستقبلِ شرقهم بل في ماضيهِ أيضاً.. بل ذهبوا أبعدَ من ذلك، فهم يدعون عندما يقوّضون فكرَ المفكرين في الشرق بأنهم يصححون أفكارَ أولئكَ المفكرين وبأنهم يضعونَهم على الطريق القويم في المنهج والتفكير. ومن لم يفكر بعقلهم وينظر بمنظارهم رافضاً الدوران بفلكهم فهو إما رجعيٌّ متأخر لا يستحق التقدمَ الذي أحرزه الغربُ، وإما متحجرٌ لا يستطيع التطورَ.

لقد شعر الغرب ببعض القلقِ عندما ظهر كتابُ « الاستشراق »، ولا عجبَ في ذلك، فقد شجع عدداً غير قليل من المثقفين والكُتّابِ العربِ على وجهِ الخصوص على دراسة الاستشراق ودوافعه ومناهجِه والأهدافِ الكامنةِ وراءَهُ.

وعندما نتكلم عن الاستشراق فلا بد لنا من أن نشير إلى بعض النقاطِ الهامةِ منها:

١- إن الاستشراقَ - بمعظمهِ - كان ولا زال رمزاً لهيمنة الغربِ السياسيةِ والحضاريةِ على الشرق. وقد وضع المستشرقون نظرياتٍ تبيح لهم أن يُقَيِّموا الشرقَ كما يشاؤون، ثم يصدقون نظرياتهم تلكَ ويصبح من حق الغربِ بعدئذٍ حكمُ الشرق بدواعيَ شتى، أبسطها أن الشرق لا يعرف، ولا يستطيع، حكمَ نفسه، ومنها أن ثرواتِ الشرقِ أكبرُ من مالكيها، ولا بدَّ للغرب من أن يستثمرها ويتمتع بها، فهي ثرواتٌ عالمية وعلى الغرب أن يكونَ قيّماً عليها.



٢- قام الاستشراقُ على نظرياتٍ عنصريةٍ تدعي أن شعوبَ الشرق هم أدنى درجةً في سلمِ الحضارةِ من شعوب الغرب. وكان المستشرق الفرنسي أرنست رينان[٢] أحدَ أئمةِ هذا المذهبِ، فقد ادعى بأن الشعوبَ الساميةَ هي أقل تطوراً من الشعوب الغربية، بل هي أقلُّ قابليةً للتطور من هذه الشعوب.

أليستْ هذهِ النظريةُ هي النظريةَ النازيةَ بأمِّ عينها؟

٣- إنَّ معظمَ ما دَرَسَه المستشرقون من التراثِ العربي، سواءٌ أكان في مجال العلوم التطبيقيةِ أو النظريةِ الأساسيةِ أو علمِ الاجتماع، أو التاريخ والجغرافيا وحتى الأدبُ العربيُّ والفقه والسيرة.. كان موظفاً في نهاية المطافِ لخدمة أهدافِ المستشرقين في السيطرة على الشرق.

٤- لقد نظر المستشرقون إلى الشرق على أنَّهُ جزءٌ تابعٌ للغرب، غيرَ لصيق به، بل ذهب بعض المستشرقين إلى ما هو أبعدُ من ذلك عندما اعتبروا بأن الشرقَ ملكٌ للغرب.

وهكذا نجد بأنَّ الاستشراقَ ما هو إلاّ وليدُ علاقةٍ عضويةٍ أساسها الهيمنةُ والتسلط السياسيُّ والعسكري والحضاري. وأصبحت هذهِ النظريةُ وهذه الطريقةُ في التعامل مع الشرق باديةً للعيان عند المستشرقين الانكليز والفرنسيين بشكل خاص.

٥- كان معظم المستشرقين الألمانِ والرّوسِ أكثرَ موضوعية وأكثرَ علميةً، إذ كان هدفهم في أغلب الأحيان الكشفُ عن كنوز المعرفةِ عندَ الأمم الشرقيةِ ونشرها.

٦- تقمصَ المستشرقون الفرنسيون دورَ الباحث عن الحقيقة في الشرق، في حينَ ادعى المستشرقون الانكليز بأن بريطانيا مسؤولةٌ عن تثقيف السكانِ المحليين في الشرق والأخذِ بيدهم ليصبحوا أكثر قرباً من الحضارة الغربية.

لقد رافقت حملةَ نابليونَ على مصرَ من جهة، وبداياتِ الطموح البريطاني في السيطرةِ على بعض أجزاء الجسم العثماني المريض، دعوةٌ لدراسة وفهمِ طبائع وذهنيةِ وعاداتِ سكان تلكَ المناطقِ التي تسيطر عليها الدولةُ العثمانيةُ ودراسة أجناسهم. وبذلك نصَّبَ الغربيُّ نفسه والياً وشفيعاً وقيّماً على الحضارة الشرقية، ليفتي وينفذ الأحكام التي يقضي بها وليكوِّن نظريات حول السكان الشرقيين وطباعهم بعيدةً كلَّ البعد عن حقيقتهم.

ومن المؤسف أن انصبَّ قسمٌ كبيرٌ من دراساتِ المستشرقين على دراسة الشعوب العربيةِ وعلى الدين الإسلامي الذي اعتبروه خطراً يهدد الغرب، ولذلك فإن الطابعَ (الدفاعي - الهجومي) لتلك الدراساتِ والحاجةِ إلى (الاقتصاص والثأر من العرب والمسلمين الذين احتلوا الأندلسَ وبيتَ المقدس!) صبغت تلك الدراسات القديمة وأثّرت في تكوين الفكر الاستشراقي، وهذا يفسرُ أيضاً الهجومَ الشرسَ الذي مارسه كتابُ تلك الفترةِ والذي انصبَّ على العربِ والمسلمينَ دونَ سواهم من شعوب الشرق.

وبالنتيجة فقد شكَّل المستشرقون الشرقَ كما يحلو لهم، وكل ما كُتب عن الشرق حتى بداياتِ القرن العشرين جاء ليؤكدَ هذهِ المقولةَ. وإذا ظهر أن الشرقَ مخالفٌ لما كتبه المستشرقون عنه، فالعلةُ هنا هي أنَّ الشرقَ قد تغيرَ وما كُتب عنه هو الصحيح.

لقد حاول الاستشراقُ أن يدخل إلى الشرقِ متسلحاً بسلاح البحثِ العلمي، فكانت دراسةُ اللغةِ العربيةِ والترجمة من العربيةِ إلى اللغاتِ الأوروبيةِ وتصنيفِ المواد المترجمة من أهم أعمال المستشرقين. ولم يكتفِ المستشرقُ سلفستر دي ساسي(٤) عميدُ المستشرقين الفرنسيين بذلكَ، بل قام بدراسة اللغة العربية دراسة دقيقة فألفَ كتاباً عن مبادئ النحو العامة سنة ١٧٩٩م، وكتاباً بعنوان القواعد العربية سنة ١٨١٠ م، ووضع كتاباً بعنوان «المقتطفات العربية» في ثلاثة أجزاء سنة ١٨٠٦ م - ١٨٢٧ م و«مقتطفات أدبية من القواعد العربية»

سنة ١٨٢٥ م و قدم أيضاً أطروحاتٍ عن علم العروضِ العربي وأعمالاً قصيرةً عن علم أصول الكلمات والتاريخ والجغرافيا والأوزانِ والمقاييس وقام بعددٍ من الترجماتِ وكتب شرحينِ مطولينِ عن قصةِ كليلةَ ودمنةَ ومقاماتِ الحريري. ويدّعي دي ساسي أنه في عمله عن الاستشراق قد كشف كميةً هائلةً من المواضيع المغمورة وأنقذها ووضعها أمامَ الدارسين. وبكثيرٍ من الدهاء والمكر حاولَ أن يدعم أفكارَهُ بحججٍ واهيةٍ، فقد كان يحاول أن يوضحَ لماذا لم يكن في طاقة الشرقِ القدرةُ على البقاء في وجه الذوق الغربي أو ذكائه، وصبره. لقد دافعَ ساسي عن الشعر العربي، ولكنه في نفس الوقت كان يقول بأنَّ الشعرَ العربيَ يجب أن يُحوّلَ تحويلاً ملائماً على يد المستشرق قبلَ أن يتاح له أن يتذوقه الغربي ويقدره. وفي رأيه بأنَّ الشعرَ العربيَ كان من إنتاج شعب غريب كلَّ الغرابة بالنسبة للأوروبيين وفي شروط مناخية واجتماعية وتاريخية تختلف اختلافاً ضخماً عما يعرفه الأوروبيون، وأن هذا الشعر يتغذى على مجموعة من الآراء والمعتقدات التي لا يمكن أن تفهم إلا بعد دراسة طويلة ومجهدة. وحتى حين يُخضع المرء نفسه إلى تدريب تخصصي صارم فإن كثيراً من معاني الشعر العربي ستظل بعيدة عن الأوروبيينَ الذينَ وصلوا إلى مرحلةٍ متقدمةٍ من الحضارة ! ومن هنا فإن فائدةَ المستشرقِ - بنظره - تكمنُ في أنه يضع في متناول مواطنيهِ كماً كبيراً من التجربة غيرِ المألوفة، بل ما هو أكثر من ذلك، إذ إنه سيصنعُ نوعاً من الأدب قادراً على إعانةِ الغرب على فهم الشعر « الإلهي » الذي ألفه العبرانيون. ولقد استُخدمت أفكارُ دي ساسي في أوربة على مدىً واسعٍ و لأجيال عديدة. ومن خلال هذه الأفكار حاول المستشرقون فرضَ رقابةٍ ووصاية على الشرق، وليغطوا الشرق بعقلانيةِ المستشرق، وليصبح الشرق في نهاية المطاف ملكاً للمستشرقين .

و إذا كان دي ساسي هوَ المؤصلَ و المؤسسَ للاستشراق الفرنسي، فإن أرنست رينان - وهو من الجيلِ الثاني للمستشرقين الفرنسيين، قام بوضع المؤسساتِ الفكرية و المادية للاستشراق .

لقد كانت جهود دي ساسي فردية و كان أول من منح الاستشراق حيويتَهُ، أما رينان فكان دورُهُ منحَ التماسكِ والصلابةِ والتأسيس الرسمي للاستشراق. وكانت أقلمتُه

للاستشــراق معَ فقهِ اللغة وأقلمةِ كليهما مع ثقافة عصره الفكريةِ سبباً أساسياً لمنح البُنى الاستشراقيةِ ديمومتَها الفكريةَ وجعلها بارزة للعيــان. لقد كان رينان تلميــذاً سيئاً لـ دي ساســي و لكنه كان على عكــس معلمه فلم يكن يتقنُ اللغة العربيــة بشكل جيد، وهذا ما أوقعه في مغالطــاتٍ شتى عندما تحدثَ عــن اللغة العربية. وعندمــا كتب كتابَهُ عن ابــنِ رشد فإنه اعتمد على ترجمات لاتينية لذلــك الكتاب. وكان رينـــان في كل ما كتب أســيراً لاقتناعـــه بأهميةِ اللغـــة في نظرية تصنيف الشعوب والحضارات، و كان مؤمناً بسلمِ تراتبيةِ الشعوب والحضاراتِ بناءً على نظرياته في اللغة، وعلى هذا الأساس خلص إلى نتيجــة مفادها أن العقــلَ الساميَّ (من السامية) لا يستطيع أن ينتجَ علماً أو فلسفةً أو شعراً، مــا عدا العبريةَ التي أنتجت نوعاً بسيطاً من الشعر. (وفي هذا المجالِ اختلف معه المستشرقُ إجناس جولد تسهير وهو من يهود المجرِ عندما أكد أن العبرانيين القدماء توصلوا إلى إنتاج الأساطير). لقد عبر رينان عن اشمئزازه من « البساطة الفظيعةِ للروح الساميّةِ التي تغلق العقــلَ البشريَّ نحو كل فكرة دقيقة ولكل عاطفةٍ رقيقة ولكل بحث عقلاني. أما خلاصةُ استنتاجاته عن العقل السامي وعن الإسلام فقد كانت صريحة في محاضرته الشهيرة بعنوان «الإسلام والعلم» حــين قال: « إن كل من جال في الشرق أو في إفريقيا صُدم بالدائرة الحديدية التي تغلقُ عقل المؤمنِ هناك مما يجعله يرفضُ العلومَ رفضاً مطلقاً وهو غــيرُ قادر على الانفتاح علــى ما هوَ جديــدٌ »، وأمّــا الاستنتاجاتُ السياسيةُ لرينان فكانت أسوأ من استعماريةٍ فهو آمن دون أي لبــس بتفوق العرق الآري الذي يحتضنُ برأيه مستقبل الإنسانية، لكنّ هذا المستقبل يتطلــب « تدميرَ دور العنصر السامي في الحضـــارةِ، والسلطةِ السياسية للإسلام » . ومع ذلك فإن بعضَ المستشرقين الذين أتوا بعدَ رينــان ذهبوا أبعد من ذلك عندما أنكــروا أن يكون للعرب أيُّ مساهمة مبتكــرة في حقل الفلسفةِ مدعين أن العرب نقلوا عن الإغريق دونّما أي إبداعٍ، و ما يذكر للعرب هو أنهم حفظوا تراثَ الإغريقِ(٤).

ولنقفْ على حقيقة تفكير رينان ونظرته للعرب والمسلمين نســوق المقتطفاتِ التاليةَ مــن مناظرةٍ مشهورةٍ جرت بينه وبين جمال الدين الأسد أبادي المعروف بالأفغاني وذلك سنة ١٨٨٣ م.

يقول رينان في مناظرته:

« لقد خبرْتُ مراتٍ عديدةٍ لطف اهتمام هذا المجمع من المستمعين فتشجعْتُ على أن أطرحَ للدرس أمامكم اليومَ موضوعاً من أكثر المواضيع دقّةً، المليء بالفروق الدقيقةِ التي لا مناصَ من الخوض فيها إذا أردنا أن نخلّصَ التاريخَ من الآراء التقريبية. إنّ نقص الدقّة في استعمال الكلمات التي تسمُ الأعراقَ والأمم هي من أهم أسبابِ الالتباسِ في التاريخ. نتحدثُ عن الإغريق وعن الرومان وعن العرب وكأنّ هذهِ الكلماتِ تحيل إلى مجموعاتٍ بشريةٍ ذاتِ هوياتٍ قاهرةٍ فلا نحسب حساباً للتغيرات المترتبةِ على الفتوحات الحربيةِ والدينية واللغوية وعن الأذواق الجديدة والتيارات الكبرى من مختلفِ الأنواع وهي تخترقُ تاريخَ الإنسانية. لا يمكن التحكّم في الواقع بمقولات في مثل تلك الدرجةِ من التبسيط. نحن الفرنسيينَ مثلاً رومانٌ باللغة وإغريقٌ بالحضارة ويهودٌ بالدين. قضيةُ العرق التي تأخذ في المبدأ أهميةً كبرى لا تنفكّ تفقد أهميتَها بسبب ظهور ظواهرَ كونيةٍ تُدعى الحضارةَ الإغريقيةَ والزحفَ الروماني والغزوَ الجرماني والمسيحيةَ والإسلامية والنهضةَ والفلسفة والثورة، هذهِ جميعاً تمرّ مثلَ الإعصار على التنويعاتِ البدائية للأسرة البشرية فتجبرها على الانصهار في مجموعاتٍ متفاوتةِ التجانس. أودّ أن أحاول أمامكم توضيح واحدة من أكثر الأفكار غموضاً وتشابكاً في هذا السياقِ، أقصد الخلطَ الحاصل عند استعمالِ الكلمات: علوم عربيّة، فلسفة عربيّة، فنّ عربي، علوم إسلاميّة، حضارة إسلاميّة. يترتبُ على الأفكار الملتبسةِ الكثيرُ من الأحكام المضللةِ بل الأخطاءِ العمليةِ الخطيرةِ أحياناً.

كلّ إنسان يتمتع بالحدّ الأدنى من الاطلاّع على شؤون العصر يرى بوضوح الدونيةَ الحالية للبلدان الإسلامية والانحطاطَ الذي يميّز الدولَ التي يحكمها الإسلام والبؤسَ الفكري للأعراق التي لا تقتبس ثقافتها وتعليمها إلاّ من هذه الديانةِ. كلّ الذين زاروا الشرقَ أو إفريقيا يصدمهم الانغلاقُ الذي يميّز عقل كلّ مؤمنٍ صادقٍ، حتى كأنّ دماغَهُ قد أحيط بسوار معدني يمنع عنه العلومَ ويحظر عليه التعلّمَ ويدرأ به أن ينفتحَ على فكرة جديدة. والطفلُ المسلم قد ينشأ بعقلٍ يقظٍ لكنّ التربية الدينيّة تحوّله في سنّ العاشرةِ أو الثانيةَ عشرةَ إلى كائنٍ متعصّبٍ

يدّعي حمقاً أنّه يمتلك الحقيقةَ المطلقة ويسعد بوضعه الدوني الذي يحسبه امتيازاً. تُمثّل هذه العِزّةُ الجنونيّةُ الرذيلةَ الجذريّةَ للمسلم. والبساطةَ التي تبدو عليها عباداتُهُ تملؤه باحتقارٍ غيرِ مبرّر للأديانِ الأخرى. يحتقر المسلم التعليمَ والعلوم وكلَّ ما يميّز العقلَ الأوروبيَّ لأنّه يعتقد أنّ الله يمنحُ الثروةَ والسلطان بمطلق مشيئته فلا دخلَ في ذلك للتعلّم ولا للاستحقاق. هذه العادةُ الرديئةُ التي رسّختْها العقيدة الإسلاميّة بلغت من القوّة حدّاً جعلت الفوارق بين الأعراق والقومياتِ تختفي باعتناق الإسلام. من يدخل الإسلامَ من البربر والسودان والقفقازيين والماليين والمصريين والأحباش يفقد هويته. يسعى العديدُ من الناس إلى التخفيفِ من الاستنتاجاتِ المؤسفةِ المترتبة ضدَّ الإسلام على هذه المعاينةِ العامةِ فيقولون إنّ هذا الانحطاطَ قد لا يكون في آخر المطافِ إلاّ حالةً عابرةً. وهم يستنجدون بالماضي ليُطَمئنوا أنفسَهُم حول المستقبل. يقولون: هذه الحضارةُ الإسلاميّةُ التي نراها اليومَ منحطّة قد كانت في عهدٍ سابقٍ حضارةً شديدةَ التألّق. كان فيها علماءُ وفلاسفةٌ وكانت لعدّة قرونٍ مُعَلِّمَةَ الغرب الإسلامي. فما الذي يمنعها من استعادة أمجادِ الماضي؟ هذا هو الموضوعُ الدقيق الذي أرغبُ في أن يكونَ موضوع نقاشنا. هل وُجدت حقاً علومٌ إسلاميةٌ أو على الأقلّ علوم قَبِلها الإسلامُ أو تسامحَ معها؟

إنّ الوقائع المعروضة لا تخلو من بعض الحقيقةِ. أجل ظهرَ في الأمصار الإسلاميّةِ علماءُ ومفكرونَ من ذوي المكانة المرموقة من سنة ٧٧٥ م تقريباً إلى حدودِ منتصف القرن الثالثَ عشرَ، أي في فترة امتدّت خمسةَ قرونٍ تقريباً. بل يجوز القولُ إنَّ العالمَ الإسلامي كان في تلك الفترةِ متفوّقاً على العالم المسيحي من جهة الثقافةِ الفكريّة. لكنّ هذا الأمرَ جدير بأن يحلّل بعمق كي لا يكونَ مطيّة لاستنتاجات خاطئة. يتعيّنُ أن نتابع بينَ القرن والآخر تاريخَ الحضارة في الشرقِ كي نميّز العواملَ المختلفة التي ساهمت في هذا التفوّقِ المؤقتِ الذي انقلب بعد ذلك إلى دونيةٍ متأصلةٍ.

لم يكن شيء أكثر غرابة عن مسامع المسلمين في قرنهم الأوّل من الفلسفة والعلوم. كان الإسلامُ حاصلة صراع ديني متواصل منذُ عدّة قرونٍ ترك الوعيَ في الجزيرة العربيّة معلّقاً بين مختلفِ أشكال

التوحيـد السامي. جـاء الإسلام في معزل عمـا يُسمّـى العقلانيّـة والعلـمَ واعتنقه الفرسانُ العـربُ وتعلقوا بـه لتبرير الغزو والنهب فكانوا في زمانهـم الأوّل المحاربينَ الأكثر شجاعةً في العالم لكنّهم كانوا بالتأكيد الأقلّ اهتماماً بالفلسفـة بين البشر. وكتب أديبٌ مشرقيٌّ من القرن الثالثَ عشرَ يُدعَى أبـا الفرج هذهِ الكلمـاتِ في وصفِ الشعب العربـي: علومُ العرب التـي تفتخر بها هيَ علومُ اللسانِ والبلاغةِ وقرضِ الشعر وإتقانِ النثر. أمّا الفلسفةُ فلم يهبهم الله منها شيئاً ولم يجعلها من خصالهم. لا شيءَ أصدقُ من هـذا القولِ. فالعربيُّ البـدويُّ هو من أكثر الناس شاعريةً لكنّـه من أقلّهم ميلا للتأمّل والتصـوّف. يكتفي العربـي المتديّن تفسيراً للكون بإلـه مبدع يدير العالم بنفسه ويتجلّى للبشر عبر رسله المتتابعين.

أحـاط النساطـرةُ بعـد ذلـكَ بهؤلاء الخلفاءِ ضعيفي الإيمان وأصبحوا أطباءَهُم الشخصيّين واحتكروا هـذا الامتيازَ. وكان لمدينـة حرّانَ في تاريخ العقل البشري مكانةٌ لا مثيـلَ لها إذ ظلّت علـى وثنيتها محتفظة بالتراثِ العلمي للعصر الإغريقي وهي التي منحَـتِ المدرسـةَ الجديدةَ فيالـقَ العلماءِ الغرباءِ عـن أديان التوحيـدِ وخاصة منهم علماء الفلك.

كلُّ الخلفاءِ العباسيين المعاصرين للأسرة الكارلفنجية بفرنسا، ومنهم المنصور وهارون الرشيد والمأمون، كانوا من المسلمين ضعيفي العقيـدة وكانـوا يتظاهـرون بالدين لأنهم زعمـاؤه لكن تفكيرَهم كان بعيداً عنه. كانوا يتطلعـونَ لمعرفة كل شـيءٍ وخاصةً ما كان غريبـاً وثنياً. كانوا يُسائِلـونَ الهندَ وفارسَ القديمةَ واليونانَ خاصةً. صحيحٌ أنَّ أصحابَ التقوى من المسلمين نجحوا أحياناً في توجيه البلاطِ نحو ردود فعل غريبة، فكان الخليفةُ يتظاهـرُ بعضَ الأحيـانِ بالتقوى ويضحي بأصدقائِـه مـن الكفـار والملحديـن. لكنَّ نسمةَ الحرية ما تفتأ تستعيدُ الغلبةَ فيدعو الخليفةُ مجدّداً العلماءَ والخليعين وينهمكون مجدّداً في الحياةِ المتحرّرة ولا يملك المسلمون الأتقياءُ غيرَ الإدانة.

ويتابع رينان:

« هذا هـوَ التفسيرُ لحضارةِ بغدادَ التي تبـدو غريبةً جذابة. وقد رسخت معالمُها في كلِّ المخيّلات بفضل قصص ألفِ ليلةٍ وليلة. إنهـا خليط عجيـب من التشـدّدِ الرّسمي والتسيبِ المكتوم، فترةُ شباب وعبث ازدهرت

خلالها الفنون الجديّة والفنونُ المرحةُ بفضل رعايةِ قادة مارقين عن ديانة متعصبة. كان الشخصُ المتحرّرُ في هـذه الحضارة واقعاً تحت تهديـد العقوباتِ الأشـدّ قسوةً لكنه يُعامـل في البـلاط كشخصٍ ذي حظوة. ازدهـرت الزندقـة في ظلّ هـؤلاءِ الخلفاءِ الذينَ كانوا متسامحين أحياناً وأحياناً أخرى جلادين بالرغم عن إرادتهم. ظهر المتكلمون وأقاموا المناظراتِ يُخضعون بها كلّ الأديان للتعقّل».

كان من نتائج هذا التوقف المؤقت لسلطة التقـوى أن بـرزت حركةٌ فلسفيـةٌ وعلميةٌ حقيقيـةٌ. كان الأطباءُ السوريونَ المسيحيونَ متضلعينَ في الفلسفة المشائية والرياضيات والطـب والفلك وهـم ورثةُ آخـرِ المدارس الإغريقيـة. فاستعملهـم الخلفـاءُ ليعرّبوا مجمـوع أعمالِ أرسطو وإقليدس وجالينوسَ وبطليموسَ أي علومَ الإغريـق التي كانت متوفرةً آنذاك. بدأت بعضُ العقولِ النشطةِ مثـلِ الكندي تتأملُ مشـاكل كونيةً يطرحها الإنسـانُ دونَ أن يجـد لها جوابـاً فسُمي هؤلاء، الفلاسفة، ومنـذ ذلك الحين وهذه الكلمةُ العجيبةُ تحمل دلالةً مشبوهة وتشير إلى شيء غريب عن الإسلام. أصبحت كلمة فيلسوفٍ عندَ المسلمينَ تسميةً خطيرةً يمكن أن تجلبَ لصاحبها الموتَ أو الاضطهاد، شأن كلمة زنديق. لا مناص من الاعتراف أنَّ ذلكَ كانَ قمّـةَ العقلانية الحادثةِ داخلَ الإسلام، فقد نشأ ما يشبهُ الجمعياتِ الفلسفيةَ وتُرك أخـوانُ الصفـا ينشرون موسوعـةً فلسفية مهمة بما تميزت به من حكمةٍ وأفكارٍ راقية. ثم جاء رجلان عظيمان هما الفارابي وابن سينـا ليحتلا رتبةَ المفكريـن الأكثر اكتمالاً بـين الفلاسفة. وتطور الفلك والجبر تطوراً حثيثاً خاصـةً في فارس. وواصلت الكيمياء تجاربهـا الدفينة التي كانت تبرز أحياناً إلى العلـن في شكلٍ مذهلٍ، مثـلِ التقطير وربما البارود. وحملـت الأندلس بعد المشرق هذا المشعـلَ وقدَّمَ يهودها مساهمـاتٍ نشيطة. ورفع ابنُ باجةَ وابن طفيل وابن رشد الفكر الفلسفـي في القرن الثـاني عشر إلى رتبةٍ لم تبلغها منذ العصر القديم.

هذا هوَ المجمـوعُ الفلسفي الذي تعودنا أن نطلـقَ عليه صفـةَ العربي لأنـه مدوّنٌ باللغـة العربيّـةِ. لكنه في الحقيقـة تراثٌ إغريقـيٌّ ساساني. وقد يكـون أكثرَ دقّة أن نصنفه إغريقيـاً لأنّ العناصرَ الأكثر حيوية في هـذا كله قد أتتْ من اليونان. في عصور

الانحطاط تلك كانت قيمةَ العالم تتحدّد بما تتوفر لديهِ من معرفةٍ بعلومِ اليونانِ القديمة وكانـت اليونـانُ المصدرَ الوحيـدَ للمعرفة والتفكيرِ السليم. ولئن تفوقت سورية وبغدادُ على الغرب اللاتينـي فإنما السبب الوحيدُ لذلك قرب مفكريها من الميراث الإغريقي. كان أكثرَ يسـراً أن نعثرَ على كتاب لإقليدس أو بطليموس أو لأرسطـو في حرّانَ من أن نعـثرَ عليـه في باريس. يا للأسـف!، لو أنّ البيزنطيـين رضـوا آنـذاك أن يكونوا أقلّ غـيرةً في المحافظة على كنوزهـم الفكريّة التي لم تعد مقـروءةً عندهم! يا للحسرة! لو وُجـد منذ القرن الثامنِ أو التاسع أشخاصٌ مثل بوساريون (Bessarion)[٥] ولسكاريس (Lascaris)[٦]! لـو حصل هذا لما احتجنا لهـذه الـدورةِ الغريبـةِ التي جعلـت علومَ الإغريـق تصلنا في القـرن الثاني عشرَ عبرَ سورية وبغـدادَ وقرطبةَ وطليطلة. إن عنايةً خفيةً قد جعلت مشعلَ الفكر البشريّ عندما بـدأ يخبو بينَ يديّ شعب، يتلقفه شعب آخر ويرفعه ويؤجج بريقَهُ. فهذه العنايةُ هي التي منحتْ أهميةً خاصةً لأعمالِ هؤلاء السوريين المساكـين وهـؤلاء الفلاسفـة المضطهدين وهؤلاءِ الحرّانيين الذين عاشوا خارج الزمان بسبـب كفرهـم. لقد تلقـت أوروبة خميرةَ التراث القديم التي كانت ضرورية لنهضتها وانبثـاق عبقريتها بفضل تلـك الترجماتِ العربيةِ لكتب الفلسفة والعلوم الإغريقية.

فعلاً، فيما كان ابنُ رشد، آخرَ الفلاسفةِ العربِ، يسلم الروحَ في المغرب حزيناً منبوذاً، كان غربنا يتهيأ لميلاد جديد. عثرت أوروبة علـى عبقريتها وبدأت هـذا التطوّرَ الرائعَ الـذي لن ينتهيَ قبلَ أن يتحرّرَ العقل تحرراً تاماً. هنا، على مرتفعـات سانت جنفياف، نشـأ المصنعُ الجديـدُ للعمـل العقلي. ولم يكـن ينقصـه غيرُ الكتـب والمصـادر من العصـر القديم. يبـدو لأوّل وهلةٍ أنّ الأكثر منطقيّةً أن تطلبَ تلك المصادرَ من مكتبات القسطنطينيةِ التي احتفظت بالأصولِ بدلَ أن تطلبَ من تراجمَ هي في الغالب رديئةٌ ومن لغة لم تكن مهيأةً حقاً لنقل التراثِ الإغريقي. على أنّ المنازعاتِ الدينيّة كانت قد أحدثَتْ شرخـاً بين العالمين اللاتيني واليوناني ازداد عمقـاً بسبب الحملـة الصليبية الملعونة في سنـة ١٢٠٤ م. ثم إنه لم يكن لدينا مختصون في الهيلينستيـة فانتظرنـا ثلاثةَ قرونٍ قبلَ أن نحصلَ على لوفابـر ديتابل (Lefèvre d'Etaples)[٧] أو بوديه (Budé)[٨].

وفي غيابِ الفلسفة الإغريقيةِ الحقيقيةِ التي كانت مطمورة في المكتبات البيزنطيةِ اتجه البحثُ نحوَ إسبانيا كي تُستخرج علوم إغريقية رديئة الترجمة مغشوشة. لن أذكر جيربرت (Gerbert)[٩] لأن رحلاته بين المسلمين يحيط بها شكٌ قويٌ، لكننا نرى منذ القرنِ الحادي عشرَ كيف كان ليو الإفريقي[١٠] متفوّقاً في معارفه بالمقارنةِ بالسائد في عصره وبلده لأنه حظيَ بتعليمٍ إسلامي. وقد تشكّل من ١١٣٠م إلى ١١٥٠م مجمع نشيط يضمّ مترجمين استوطنوا طليطلة وعملوا تحت إشرافِ المطران ريمون (Raymond) وتولى هذا المجمع مهمةَ النقل إلى اللاتينية للكتب الأكثرِ أهميةً في العلوم العربيّة. وقد دخل أرسطو العربي مظفراً إلى جامعة باريس منذ السنوات الأولى للقرن الثالث عشر. نفض الغربُ عن نفسه دونيةً استمرّتْ أربعمئة سنة أو خمسمئة سنة. فحتى ذلك الحين كانت أوروبة تابعة في علومها للمسلمين. وفي منتصف القرن الثالث عشر كان الميزانُ بينَ الطرفينِ متأرجحاً. وبداية منذ ١٢٧٥م تقريباً بدأت تظهر بوضوح حركتان: البلدان الإسلاميّة تنحدر في انحطاطٍ فكري شديد قاتم، وأوروبة الغربية تدخل بقوّة في الطريقِ الواسعةِ للبحث العلمي عن الحقيقة. إنّه منحىً عظيمٌ لا يمكن تحديد أبعاده إلى اليوم» .

هذا جزء من محاضرة رينان المليئة بالسموم التي كان يبثها ضد العرب والمسلمين. ومن دراستنا لهذه المقتبسات من محاضرة رينان يمكننا وبكل سهولة أن نسجل الملاحظات التالية والتي تدحضُ أفكار رينانَ النرجسيةَ والعنصريةَ والاستعمارية:

١- يريد رينان في بداية محاضرته أن ينفيَ تميزَ شعوبِ الإغريق والرومان والعربِ بحجة أن المناطق التي كانت تسكنها تلك الشعوب كانت عرضةً «للتغيرات المترتبة على الفتوحات الحربية والدينية واللغوية وعن.........»

إن هذا الادّعاءَ باطلٌ ولا أساسَ له من الصحة. فالشعوب العربية من اليمن إلى جبال طوروسَ ومن الخليج العربي وجبال زاغروسَ إلى المحيطِ الأطلسي حافظت على تجانسها النسبي ووحدتها رغمَ كل الاجتياحاتِ الخارجية فلم تؤثر في بلاد الشام والعراق على سبيل المثال ــ غزواتُ الاسكندرِ أو الاحتلالُ الروماني. بل بقي

الشعبُ العربيُّ في ذَيْنِكَ القطرين يقاوم الاحتلالَ الأجنبي حتى رحل عنه سواءٌ أكان يونانياً أو رومانياً أو مغولياً أو كان على شكل غزو صليبي ضمن حملات الحروبِ الصليبيةِ التي تسلحت بالصليبِ لتبرزَ غزوَ المشرقِ العربي واحتلالَه.

وفي هذا المجالِ يناقض رينانُ نفسه فهو حين « ينفي تميزَ شعوب الإغريق والرومان والعرب » فهو يدعي في أكثر من مكان بتميز الشعوب الغربية وتفوقها.

٢- يقول رينان إن « قضيةَ العرقِ تأخذ في المبدأ أهميةً كبرى لا تنفك تفقد أهميتها بسبب.... أقصدُ الخلط الحاصل عند استعمال الكلمات: علوم عربية، فلسفة عربية، فن عربي، علوم إسلامية، حضارة إسلامية، يترتب على الأفكار الملتبسةِ الكثيرُ من الأحكامِ المضللةِ بل الأخطاء العملية الخطيرة أحياناً ».

في هذا النص يقع رينانُ في تناقضين اثنين أولاهما ادعاؤُهُ بأن قضيةَ العرق تفقد أهميتها بسبب ظهور ظواهرَ كونيةٍ، وفي مكانٍ آخر من كتاباته يقول: « خلقتِ الطبيعةُ عرقاً من العمال هو العرق الصينيُّ المتصفُ بشطارة يدِه العجيبةِ أو بخُلوِه من عزة النفس. احكموه بالعدل، آخذين منه مقابلَ نعمة هذه السياسة أجراً كبيراً لصالح العرق المظفَّر، يرضَ. وخلقت عرقاً من الفلاحين الزنج، عاملوهم بالمعروف والإنسانية.. يستتب النظام. وخلقت عرقاً من الأسياد والجنود: الأوروبيين، ليعملَ كلُّ واحدٍ لما خلق من أجله، يستقمِ الأمرُ».

فهو يعترف بوجود العرقِ الصيني، ويدعي بوجود عرقٍ من الفلاحين، وعرقٍ من الأوروبيينَ ولكن برأيهِ لا وجودَ للعرقِ العربي. نحن نقرُّ بأنه لا يوجد عرق صافٍ لأي أمة من الأمم. ولكنا لسنا مع رينانَ بأنَّ الأمة العربية فقدت هويتَها وذاتيتها بتلك التأثيراتِ التي ادعاها، لقد استطاعت الأمة العربية أن تصهرَ في أتونها جميع الجيوش الغازية سواء أتت من الشرق كغزوات التتار والمغول، أو أتت من الغرب مثل غزوات الاسكندر والرومان والصليبيين، وبقيت تحافظ على شخصيتها وميزاتها.

وأما التناقض الثاني فهو ادّعاؤه بعدم وجود علوم عربية وفلسفة عربية وفن عربي...

في هذا الادّعاء يناقضُ رينانُ نفسَهُ بل يناقض العالمَ كلَّه، فكلُّ العلماء الموضوعيون

يعترفــون بأهميــة الحضـارةِ العربية وما أفرزته من علـومٍ وفنون، فهناك فن ما زال يُدعـى حتـى الآن في أوروبا بـ الأرابيسك نسبـة إلى العرب، والإسهامـات العربية في العلوم والفلسفة والفنون أكثر من أن تحصى، فالجـبرُ علمٌ عربـي والرياضيـاتُ أسسها العرب على قبسـات خافتةٍ من الرياضيات اليونانيـة، وعلم الفلك ملـيءٌ بالإسهامات، وأسمـاء النجوم العربية، ورينان نفسه يقول بعد قليل « وكان لمدينة حرانَ في تاريخ العقلِ البشري مكانةٌ لا مثيلَ لها .وهي التي منحتِ المدرسة الجديدةَ فيالقَ العلماء الغرباء عن أديان التوحيدِ وخاصةً منهم علماءَ الفلكِ.. أليست حرانُ مدينةً عربيةً وسكانها جزءٌ من الأمة العربية ؟؟

٣- يقول رينان: « كل إنسان يتمتع بالحد الأدنـى من الاطّلاع على شؤون العصر يرى بوضوحٍ الدونيـةَ الحالية للبلدانِ الإسلاميةِ والانحطاطَ الذي يميز الدولَ التي يحكمها الإسـلامُ والبؤسَ الفكري للأعـراق التي لا تقتبـس ثقافتهـا وتعليمهـا إلاّ من هذه الديانةِ».

إنَّ في هـذا القـولِ مغالطـةً ما بعدها مغالطةٌ فالـدول العربية والإسلامية دخلت في سباتٍ حضـاري نتيجة الغزوات المتاليةِ التي داهمتها من الشـرقِ والغرب واحتلالِ أجزاءٍ كبيرةٍ منها، والاستعمارُ كعادته بعد أن يحتـلَّ بلداً ما، يحاول أن يقضي على ثقافةِ ذلـك البلـدِ وحضارته ومقومـات وجودِه، وهذا ما جرى في البلدانِ العربيةِ الإسلاميةِ وغيرها، ونفسُ الشيء حـدث في الصين والهنـد وجنوب شرقي آسيا، وهذا ما حدث أيضـاً في أمريكا عندما مسـحَ الأوروبيون حضارةَ ودياناتِ السكانِ الأصليين لأمريكا، التي لم تكن تدين بالإسلام بطبيعةِ الحال.

٤- يقول رينـان: « كل من زار الشرقَ أو إفريقيا يصدمهم الانغلاقُ الذي يميز عقلَ كل مؤمنٍ صـادقٍ .. والطفلُ قد ينشأ بعقل يقـظٍ لكن التربيـة الدينيـةَ تحوله في سن العاشرةِ أو الثانيةَ عشرةَ إلى كائنٍ متعصب.. يحتقر المسلمُ، التعليمَ والعلومَ».

يبدو أنَّ رينـان عندما كتب هذه المقولةَ لم يطلعْ على السـيرة النبويةِ وعلى اشتراط النبـي محمـد صلى الله عليـه وسلم على المشركين تعليـمَ كلِّ أسيرٍ لعشـرةٍ من أولاد المسلمين ليطلـق سراحه .. والتعليم في ذلك الحين أن يعلمه كلَّ شـيء ما عدا الإسلام، فمـن المستحيل على الأسير المشركِ أن يُعلِّم

أولادَ المسلمين الإسلامَ وهو جاهلٌ به.. ثم ألَمْ يسمع السيد رينان بالحديث النبوي الذي يقول « اطلبوا العلم ولو في الصين.. »، والعلم في الصين أيضاً ليس علماً إسلامياً. وكثيرٌ من العلماءِ العرب والمسلمين كانوا متميزينَ في العلوم الدنيويةِ بالإضافة إلى تبوئهم منصب الإفتاء كابنِ رشد الطبيب والفيلسوف والقاضي، وابن نفيس وغيرهم كثيرون..

٥- يقول رينان: « يسعى العديد من الناس ... فيقولون إن هذا الانحطاطَ قد لا يكونُ في آخر المطاف إلاّ حالةٌ عابرةٌ.. هذا الموضوعُ الدقيقُ الذي أرغبُ في أن يكونَ موضوعَ نقاشنا، هل وجدت حقاً علوم إسلامية أو على الأقل قبلها الإسلام أو تسامح بها ».

هذا هوَ بيتُ القصيدِ في كل ما يطرقُ رينان من أفكارٍ وتساؤلاتٍ، فهو يريد أن ينفيَ بأي شكل مساهمات العربِ البارزةَ في مجالات العلوم، يريد أن يحذف مساهماتِ العرب والمسلمين في الطب على أيدي حنين بن اسحق وابن رشد والزهراوي وابن زهر وابن النفيس والرازي وابن سينا والبغدادي. ويريد أن يحذفَ مساهماتِ علماء الفلك كالبتاني في تطور علم الفلك، وعلماء الرياضيات العرب في إيجاد علم الجبر وحلِّ المعادلاتِ الرياضية المعقدة... ولكن تساؤلَهُ يجيب عنه عالمٌ أوروبيٌّ من سويسرا هو آدم ميتز عندما ألف كتاباً بعنوان « الحضارة الإسلامية »، بيّن فيها الإنجازات الهامة للحضارة العربية الإسلامية ومساهماتِها في بناء الحضارة العالمية..

٦- رغم كل مغالطات وأضاليل رينانَ فهو مضطرٌ لأن يقول « إن الوقائع المعروضة لا تخلو من بعض الحقيقة، أجل ظهر في الأمصار الإسلاميةِ علماءُ ومفكرونَ من ذوي المكانةِ المرموقةِ من سنة ٧٧٥م تقريباً إلى حدود منتصف القرن الثالثَ عشرَ، أي فترةٌ امتدت خمسةَ قرون تقريباً، بل يجوز القول أنّ العالمَ الإسلاميَّ كان في تلك الفترةِ متفوقاً على العالم المسيحي من جهة الثقافةِ الفكرية ».

إن في هذا الاعترافِ الصريح من قبل رينان نفسه بالمكانة المرموقة للحضارة الإسلامية رداً على ما ادعاه قبل صفحاتٍ قليلةٍ من محاضرته بعدم أهمية الحضارة العربية الإسلامية.

٧- يقول رينان بعد أسطر قليلة من

اعترافه بأهمية الحضارة الإسلامية « كتب أديب مشرقي من القرنِ الثالثَ عشرَ يُدعى أبـو الفرج هذه الكلمـات في وصف الشعب العربـي: علوم العرب التـي تفتخر بها هي علوم اللسان والبلاغة وقرض الشعر، وإتقان النثر، أما الفلسفة فلم يهبهم الله شيئاً منها ولم يجعلها من خصائصهم».

لقد فتشت – أولاً – في معاجم الأعلام عـن هذا الذي يُدعـى « أبو الفـرج » فلم أعثرْ له على ترجمـة في كافة المعاجمِ التي درستها، ولكن هذا غير مهم إنما المهمُّ هو ما ادعاه رينانُ عن لسان ذلك « الأديبِ » الذي ادعى أن الله لم يهبهم شيئاً من الفلسفة. وفي هذه المقولةِ يبدو أن ذلك « الأديبَ » وكذلك رينـان لم يطلعا على ما كتبـه الغزالي وابن رشد الكندي.. فصدر ذلك القول عن جاهلٍ وتلقفه جاهلٌ أو متربصٌ بالفلسفة العربية.

٨- يقول رينـان: « كان لمدينة حران في تاريـخ العقل البشري مكانـة لا مثيل لها إذ ظلت علـى وثنيتها محتفظةً بالتراث العملي للعصر الإغريقي، وهي التي منحت المدرسةَ الجديـدةَ فيالقَ العلماء الغربـاء عن أديان التوحيد، وخاصة منهم علماءَ الفلك ».

في هذا المجـال لا يسعنـا إلا أن نسألَ السيـد رينان سؤالاً بسيطـاً حاول الهروبَ من الإجابـة عليه مراراً وتكـراراً وهو ... أليسـ أهالي حران عرباً ؟ وإذا لم يكونوا من المسلمين، أليس في هـذا تبيان وتأكيد على العيش المشترك بين المسلمين وغير المسلمين في دولةِ العرب؟!

٩- يدعـي رينـان أن «كل» الخلفـاء العباسيين المعاصرين للأسـرة الكارلفنجية ومنهـم المنصور وهـارون الرشيد والمأمون، كانـوا من المسلمـين ضعيفـي العقيدة.... وكانـوا يتطلعون لمعرفة كل شـيء، وخاصةً مـا كان غريباً أو وثنياً. كانوا يسائلون الهند وفارس القديمة واليونان خاصة....

إن هـذا الكلام يتضمن ثـلاث حقائق هامة:

– الإقـرار والاعـتراف بـأن الخلفـاء العباسيين كانوا مهتمين بنقل العلوم والفلسفة لكافة الشعوب التي كان لها حضارةٌ مكتوبةً إلى اللغـةِ العربيةِ وذلك بغية توسيع مساحة المعرفة عند الشعوبِ العربية سواءٌ أكان ذلك المصدرُ صينيـاً أو هندياً أو يونانياً. وكان الخلفـاء يدفعون للمترجمـين وزن الكتاب ذهباً .. أفلا يدل هذا على اهتمام الخلفاءِ بنشر المعرفة والعلـم؟؟ وما الكتب اليونانية

إلاّ جزء من الكتب التي تمت ترجمتها، فالخلفاء كانوا يبتغون الوصول إلى المعرفة أينما كانت... من الصين شرقاً إلى اليونان غرباً.

- يدّعي رينانُ بأنَّ الخلفاءَ كانوا ضعيفي العقيدة ويتظاهرون بالدين.. إنّ هذا إلا محض افتراء ومغالطة.. فهارون الرشيد على سبيل المثال كان يحجُ سنة، ويغزو أخرى، والعباسيون هم الذين شجعوا العلماءَ والفقهاءَ على كتابة أهم المراجع الإسلامية في الحديث والفقهِ والعقيدةِ. وفي نفس الوقت سمحوا لكافة الأفكارِ والمعتقدات أن تتحركَ بحرية وأن تكون هناك مناظراتٌ بين العلماء من مختلف الملل والنحل، وهذا ما عبّرَ عنه رينانُ بـ « نسمة الحرية ». إن نسمات الحرية كانت دائماً موجودة في العصر العباسي الأول الذي حاول رينانُ أن يشوهَهُ.

- قال رينان إن الخلفاء العباسيين كانوا « يدّعون العلماءَ والخليعين، وينهمكون مجدداً في الحياة المتحررة ». نعم لقد كان الخلفاء العباسيون متحررينَ، ولم يكونوا خليعين بحال من الأحوال. ولئن ظهرت بعض مظاهر المجونِ هنا أو هناك فالخلفاء كانوا على جانب عظيم من الورع والتقى. والذي يدعو العلماءَ إلى مجالسةٍ لا يدعو الخليعين.

وأما قصص ألف ليلة وليلة التي يحاول المستشرقون دائماً إلصاقها بالعرب والمسلمين وجعلها ممثلة لأدبهم وعلمهم وحضارتهم فما هي إلاّ رواياتٌ لا يُعرف أصلها أو مؤلفها ومتى ظهرت وأين كانت تروى؟؟ إن هي إلاّ كتاب لا يمكن نسبه للخلفاء العباسيين أو للحضارة العربية الإسلامية، فالحضارة - أي حضارة - لا يمثلها كتاب واحد. ولماذا تجاهل رينان بقية الكتب التي ألفها العرب والمسلمون في شتى مجالات العلوم.

١٠- يقول السيد رينان « إن الأطباء السوريين والمسيحيين متضلعون في الفلسفة المشائية والرياضيات والطب وهم ورثة آخر المدارس الإغريقية فاستعملهم الخلفاء ليُعَرّبوا مجموع أعمال أرسطو وإقليدس وجالنوس وبطليموس... أي علوم الإغريق التي كانت متوفرةً آنذاك. حيث بدأت بعض العقول النشطة مثل الكندي تتأمل مشاكلَ كونيةً يطرحها الإنسانُ دونَ أن يجدَ لها جواباً فسمي هؤلاء بالفلاسفة.. »

في هـذا النص اعـتراف صريح بالأمور التالية:

- إن الأطبـاءَ السوريين كانوا متضلعين في الفلسفة والرياضيات والطب والفلك... وهو في مكان آخر ينفي أن يكون للعرب أيُّ مساهمة في تنميـةِ العلوم والفلسفة.. وكأن السوريين لم يكونوا عرباً.

- أقرَّ بأن الخلفاء كانوا مهتمين بالعلوم وترجمتهـا من اللغة اليونانية وفي هذا دليلٌ علـى اهتمام الخلفاءِ بالعلـوم على مختلف أنواعهـا ولم يكونوا ماجنينَ، وفي هذا النصِ اعترافٌ غيرُ مباشر بأن العرب كانوا قادرينَ على تمثـل الكتابـات الإغريقيـةِ وفهمها وترجمتهـا، فالجاهلُ بعلمٍ مـا لا يستطيع ترجمةَ أيِّ نصٍ منه.

- عـاب رينان على العـرب عدم وجود فلاسفة عـربٍ، ولكنه في نفس المحاضرة يعـترف « بوجـود عقـولٍ نشطـة » يسمى أصحابها فلاسفةً أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد..

١١- يدعي رينـان بأن العقـل العربي والإسلامي بعيدٌ عن تقبل العلوم وهو يعترف بمكانٍ آخرَ مـن محاضرته بوجود فئةٍ كانت في قمة العقلانية داخلَ الإسلام وأنشأتْ ما يشبهُ الجمعياتِ الفلسفيةَ.

١٢- يدعـي رينان بأن الـتراث العربي يُطلق عليه صفةُ العربـي لأنه مدون باللغة العربيـة ولكنَّه في الحقيقة تـراث إغريقي ساساني.. لقد نسيَ رينانُ ما قاله قبل قليل إن العـربَ برعوا في العلـوم وكانت لديهم طبقةٌ هامة من الفلاسفةِ. صحيح أن العرب ترجموا علومَ اليونـان ولكنهم لم يكتفوا بها بل ترجموا - وباعترافِ رينانَ نفسهِ - علومَ الصـين والهند.. ولكن المهم في هذا الموضع والذي تجاهله رينانُ وضربَ عنهُ صفحاً هو أن مـا ترجمهُ العرب من علـومٍ أجنبيةٍ ما هي إلاّ جدولٌ صغـير بالنسبة لبحر العلوم العربيـة الذي يعترفُ بـه رينانُ في أكثر من مكان. ويعترف بفضلـه على أوروبة، ونعود لنؤكـدَ بأنه لو لم يكنْ مَـنْ العرب من يجيد الفلسفـةَ لمـا ترجم كتـبَ الفلسفة، ومن لا يجيـد العلومَ الهندسية لا يستطيعُ ترجمتَها مـن أي لغةٍ كانـت... وهكـذا.. لقد مرتِ الحضارةُ العربيةُ في بداية ازدهارها بعصر الترجمةِ ثم انتقلـت إلى مرحلة جديدةٍ هيَ مرحلـةُ التأليفِ والإبـداع، فأقبل الغربُ - غربُ رينان - علـى ترجمة الكتبِ العربية للمؤلفين العرب، بالإضافة لترجمةِ النصوص اليونانية المترجمةِ للعربية والتي تم ترجمتُها

في الأندلس إلى اللغات الأوروبية المحلية. لماذا ترجم الغربُ كتبَ الرازي وابنِ سينا والزهراوي والبتاني والخوارزمي... وغيرهم؟؟ وهي كتب عربية بامتياز.

١٣- يقول السيد رينان إن ليو الإفريقي(١٢) كان متفوقاً في معارفه بالمقارنة بالسائد في عصره وبلده لأنه حظي بتعليم إسلامي.

« وقد تشكل من ١١٣٠ م إلى ١١٥٠ م مجمعٌ نشيطٌ يضم مترجمين استوطنوا طليطلةَ وعملوا تحت إشراف المطران ريمون وتولى هذا المجمع مهمةَ النقلِ إلى اللاتينية للكتب الأكثر أهمية في العلوم العربية ».

إذا كان هناكَ علومٌ عربيةٌ وتم نقلها إلى اللاتينيةِ. فهل بعدَ هذا الاعتراف اعترافٌ.

١٤- يقول رينان: « يتعينُ أن نتابعَ بين القرن والآخر تاريخَ الحضارة في الشرق كي نميزَ العوامل المختلفة التي ساهمتْ في هذا التفوقِ المؤقتِ الذي انقلب إلى دونيةٍ متأصلةٍ ».

ويحق لنا أن نتساءل ما الذي جعل تفوقَ الشرق مؤقتاً؟ أليست الهجمات البربرية من الشرق الأقصى ومن الغرب الاستعماري هي التي ساهمت في القضاء على حضارةِ الشرق؟؟ ومن جهة أخرى، فبعد استعمارِ الغرب للشرق العربي، أليس هو السببَ المباشرَ في تكريس الجهل والتخلف؟؟

١٥- يقول رينان بأن يهودَ الأندلس قدموا مساهماتٍ نشطةً في الحضارة العربيةِ الإسلامية في الأندلس. صحيحٌ أنه ظهر بعض الأطباء المتميزين من اليهودِ ولكن بشكل عام لم يتعدَ دور اليهود الترجمة من العربية إلى اللغات الإسبانيةِ المحلية، ويقوم المترجمون الأوروبيون بالترجمة من اللغات المحليةِ المحكيةِ في الأندلس إلى اللغات الأوروبية... إن تلك الترجمات كانت تتمُ بأجر، ويهودُ الأندلسِ اتخذوا الترجمة حرفةً يرتزقون منها. وكانت الكتب المختارة للترجمة يتم اختيارها من قبل أوروبيين يدركون أهميةَ المواضيع التي يُرادُ ترجمتُها. ومن المترجمين في الأندلس جيرارُ الكريموني وهو إيطاليُّ الأصلِ، والأسقفُ ريمونُ وهو أسقفُ طليطلة الذي أسس مجمعاً لترجمة الكتبِ العربيةِ والاستفادةِ منها. فالكتبُ العربيةُ كانت تدرس في الجامعاتِ الأوروبيةِ الناشئةِ في ذلك الحينِ، كما تمت الاستفادةُ من الكتب الأخرى في الزراعة والفلك والطبِ والصيدلة.

هـــذا فيما يتعلق بالعـــرب والمسلمين ..

أما فيما يتعلق بالشعوب الساميةِ فقد أورد رينانُ في كتابه « تاريخ اللغات السامية » ما ملخصه:

١- إن الجنس السامي توصل إلى أصفى صورة دينيـــةٍ لغياب التفكير لديهِ فهو جنسُ الكتب المنزلـــة والحكم الرمزيـــةِ والمزامير والأناشيد.

٢- الجنـــس السامي تعـــوزه الروحانيةُ الساميةُ التي عرفهـــا الهنودُ والألمانُ وليس له هـــذا الإحساسُ بالجمـــال الذي بلغَ حد الكمال عند اليونان.

٣- إن الساميين بديهتُهم حاضرةٌ ولكنها محدودةٌ، وهم يفهمون الوحدةَ بشكلٍ غريب، فالتوحيدُ هو أهـــمُّ خصائصهم، ومن آثاره التعصب.

٤- الساميـــون تنقصهـــم الدهشةُ التي تدعو إلى التساؤلِ والتفكير والتي تدعو إلى البحـــث عن الحقيقة. فالمعتقـــدُ التوحيديُّ يجعلهم يحيلون كلَّ الأمور إلى الله.

٥- إنهـــم دونَ فلسفـــةٍ، لأن الفلسفـــةَ المنقولةَ ليست فلسفة.

٦- إن شعَرهـــم « يعـــوزهُ الاختـــلافُ والتنويـــع » ولهذا يشيعُ عنـــدَ العربِ الشعرُ الشخصـــيُّ الغنائي، بينما يشيع عند اليهودِ الشعـــرُ المجازيُّ فانعـــدام « المخيلة » ينفي الاختراع.

٧- الساميـــون ينقصهـــم الإحساسُ بالتنويـــع، فالتشريعُ الساميُّ لم يعرف مطلقاً إلا نوعـــاً واحداً مـــن القصاص هو «الموتُ» ومَلَكَةُ الضحك معدومةٌ عند الساميين.

٨- الأخلاقُ نفسُها ينظر إليها الساميون نظـــرةً تخالـــفُ نظرتَنا إليهـــا، فالساميُّ لا يعرف مطلقاً أن عليه واجبـــاتٍ إلا لنفسِه، وإذا طلبـــت إليه أن يحافظَ على كلمته ويبرَّ بوعـــده وأن يقيـــمَ العدل بلا تمييـــزٍ فإنما طلبـــت إليه مستحيلاً، فالأنانية تتمثل فيهم بأجلى مظاهرها.

هذه هي أفـــكار آرنست رينان المستشرقِ الفرنسي الـــذي أسس لمدرســـة الاستشراقِ الفرنســـي من بعده، لقد وضـــعَ أفكاراً عن الشرق وعـــن العـــرب وعن الإســـلام وعن الساميين هي أبعدُ مـــا تكون عن الحقيقةِ، ولكنها كُرست وبـــكل أسف كدستور للتعاملِ مع الشرق والشرقيين فيما بعد.

ومـــع ذلـــك فلـــم يكـــن كلُّ المستشرقينَ الفرنسيينَ يتبنون أفـــكارَ رينانَ فعلى سبيل المثـــال نجـــد العـــالم الفرنســـي الموضوعي

سيديو[11] يقول « حمل العرب وحدهم لواء الحضارة في القرون الوسطى... ولم يقفوا عند ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبواباً جديدةً لدرس الطبيعة، مما يقتضي اعتبارَهم مؤسسين حقيقيين للعلوم الطبيعية بالمعنى الحديث».

وختاماً فإننا نقول بأن رينان لم يستطع أن يدركَ في كلِّ ما كتبه عن الشرق وعن العرب، بأن الأرض العربية كانت وما زالت وطناً لكل من عاشَ عليها مهما كانت ديانتُهُ ومهما كان انتماؤُهُ العرقيُّ. فالكلُّ سواسيةٌ والكلُّ يدافعُ عن أرضِهِ في وجهِ الطامعين.

الهوامش

(١)- صدر الكتاب سنة ١٩٧٨م في الولايات المتحدة الأميركية بعنوان Orientalism....، وقد تم نشره عن دار النشر الأميركية Vintage Books، a division of Random House .Inc

(٢)- إدوارد و. سعيد، ولد في القدس سنة ١٩٣٥ م وأتمّ تعليمه الابتدائي والثانوي فيها وفي مصر. ونال درجة البكالوريوس من جامعة برنستن في الولايات المتحدة والماجستير والدكتوراة من جامعة هارفرد. عمل في جامعة ستانفورد وبرنستن وجامعة كولومبا. توفي في نيويورك سنة ٢٠٠٣م .
صدر له من الكتب بالانكليزية: بدايات، الاستشراق، الأدب والمجتمع، المسألة الفلسطينية، تغطية الإسلام، تعقيبات على الاستشراق.
ترجم كتاب الاستشراق إلى الفرنسية والألمانية والإسبانية والايطالية والتركية والفارسية والماليزية واليابانية والعربية.

(٣)-أرنست رينان: وُلِد أرنست رينان في مقاطعة بريتاني غربي فرنسا عام ١٨٢٣ م، ومات في باريس عام ١٨٩٢م. توفي والده وهو في الخامسة من عمره. وكان طيلة حياته يشعر بالتمزق بين قناعات والده الجمهورية وقناعات أمه الملكية والمسيحية. اطلع على فلسفة كانط وهيغل وهيودر.
دخل مدرسة الرهبان ولكن سرعان ما تركها وتراجع عن الانخراط في سلك الكهنوت. حصل على شهادة التفوق في الفلسفة عام ١٨٤٨م، وكانت أطروحته في الجامعة عن ابن رشد. سافر إلى سورية ولبنان وعاد بعدها ليؤلف كتابه « حياة يسوع »، وعند ظهور الكتاب ثارت الأصولية المسيحية عليه واتهمته بالتجديف والكفر، وغضب عليه البابا بيوس التاسع غضباً شديداً ناعتاً إياه بأنه

كافر أوروبي كبير. وبالنسبة له فإن علاقته بالدين كانت معقدة، فمن جهة كان ينتقده مدعياً بأنه مليءٌ بالخرافات والأوهام؛ ومن جهة أخرى يعترف بأهميته كعامل قوي لتوحيد الشعوب، وهو يعتقد جازماً بأن العلم والتقدم الصناعي حلاً محل الدين.

(٤)- ولد سلفستر دي ساسي عام ١٧٥٧م واسمه الكامل انطونيو اسحق سلفستر دي ساسي. تلقى دروساً خاصة في اللغة العربية أولاً، ثم السريانية والكلدانية وأخيراً العبرية وذلك في دير الآباء البندكتيين وكانت اللغة العربية هي اللغة التي فتحت له باب الشرق. عين في عام ١٧٦٩م كأول مدرس للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية ثم أصبح مديرها عام ١٨٢٤م. وفي عام ١٨٠٦م تم تعينه كأستاذ في كولج دو فرنسا وكان أول رئيس للجمعية الآسيوية التي تأسست عام ١٨٢٢م.

(٥)- بوساريون (Bessarion) : يوناني الأصل ولد في مدينة تريبوزوند على شواطئ البحر الأسود عام ١٤٠٠ . وأكمل دراسته في القسطنطينية ومن ثم عين كاهناً للكنيسة الكاثوليكية الرومانية. طيلة فترة بقائه في روما وكان دائماً يحاول التأثير على الباباوات وملوك الدول الأوروبية لمساعدة اليونان لتحريره من العثمانيين. وكان له دور فعال أيضاً في ترجمة وحفظ عدد كبير من المخطوطات اليونانية. توفي عام ١٤٧٢م.

(٦)- قسطنطين لاسكاريس (Lascaris): دارس وعالم نحو يوناني، ولد عام ١٤٣٤ م في مدينة القسطنطينية وتوفي عام ١٥٠١ م . كان أحد الأشخاص المشجعين على إحياء الدراسة اليونانية في شبه الجزيرة الإيطالية. وانتقل بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م إلى إيطاليا وهناك قام بنشر أول وأشهر كتاب له بعنوان (Grammatica Graeca, sive compendium octo orationis partium) عام ١٤٧٦م.

(٧)- (Lefèvre d'Etaples): كاتب لوثري فرنسي.

(٨)- بوديه (Budé): دارس فرنسي، ولد في باريس عام ١٤٦٧م وتوفي عام ١٥٤٠م. من أشهر أعماله Asse et Partibus وهي عبارة عن أطروحة عن العملات النقدية القديمة ومعايرها.

وكتب أيضاً Annotationes in XXIV. Libros Pandetarum (١٥٠٨) التي كان لها تأثير بارز على دراسة القانون الروماني لتطبيقها لعلم فقه اللغة والتاريخ.

كما كتب أيضاً Commentarii Linguae Graecae (١٥٢٩) وهو عبارة عن مجموعة شاملة للملاحظات المعجمية والتي ساعدت على دراسة الأدب اليوناني في فرنسا.

(٩)- سلفستر الثاني الملقب بـ جيربير (Gerbert): ولد في مدينة أوريال Aurillae في إقليم الأوفرن

وسط فرنسا عام ٩٤٥م، وتوفي في روما عام ١٠٠٣م . كان أول فرنسي حصل على لقب البابا عام ٩٩٩م، وهو أول بابا فرنسي، والبابا الوحيد الذي تعلم العربية. ودرس العلوم على أيدي عرب اسبانيا.

ذاع صيته كساحر عند عامة الناس وألفت العديد من الأساطير حوله. ويقال إنه شجع على دخول العلوم العربية لأوروبا وبأنه هو من اخترع رقاص الساعة.

(١٠)- ليو الافريقي: حسن بن محمد الوزان الفاسي، ولد في غرناطة عام ١٤٨٨م. غادر غرناطة مع عائلته بعد الغزو المسيحي للمملكة الإسلامية عام ١٤٩٢م واستقر في مدينة فاس المغربية ودرس في جامعة القيروان. رافق عمه في بعثة دبلوماسية في المغرب حتى مدينة تيمبوكتو.

أسر في شبابه من قبل القراصنة الأوروبيين في البحر المتوسط وبيع كعبد. ثم قدم للبابا ليو العاشر حيث تم تنصيره وتحريره من العبودية. توفي في تونس عام١٥٥٤م.

من أشهر أعماله كتاب osmographia Dell` Africa (وصف إفريقيا).

(١١)- سيديو Louis Pierre Euegene Amelie Sedilliot : مستشرق فرنسي ولد في باريس عام١٨٠٨م وتوفي عام ١٨٧٥م .وهو الابن الثاني للمستشرق إمانويل سيديو الذي كان مستشرقاً وفلكياً. درس الرياضيات والفلك عند العرب وله فيها مؤلفات عديدة.

المصادر والهوامش

١- أحمد، الدكتور علي، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٧م.

٢- بدر، أحمد، الحضارة العربية الإسلامية، ط٤، جامعة دمشق، ١٩٩٧م.

٣- الحوراني، المهندس أيهم عبد الرحمن، الغزو الثقافي ومحاولات اختراق الفكر العربي، ٢٠٠٣م.

٤- الجيوسي، الخضراء (تحرير): الحضارة العربية في الأندلس ج٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان ط١ ١٩٩٨ م.

٥- سعيد، ادوارد، الآلهة التي تفشل دائماً، ترجمة حسام الدين نضور، التكوين للطباعة والنشر، بيروت- دمشق، ٢٠٠٣م.

٦- سعيد، ادوارد، تغطية الإسلام، ترجمة د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٥م.

٧- سعيد، ادوارد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حديدي، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٦م.

٨- غارودي، روجيه، في مواجهة الإمبراطوريات الزائفة، نقلها للعربية د. أحمد القديدي، مركز الراية للتنمية الفكري، جدة - المملكة العربية السعودية ٢٠٠٥م.

٩- غارودي، روجيه، من أجل حوار بين الحضارات، ترجمة ونشر الدكتور ذوقان قرقوط، توزيع دار النفائس - بيروت.

١٠-ميتز، آدم، الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو زيد، منشورات دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٧م.

١١-الموسوي، د.محسن جاسم، الاستشراق في الفكر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٥م.